مواطن النباتات الزراعية

لمراسل مصطفى الشربيني

نشر المقتطف في عدد تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٣٤ بعنوان « الزراعة والحضارة : كيف نشأت زراعة الذرة وأين » مقالاً قال إنهُ لخصهُ عن بحث للاستاذ ايست بجامعة هارفرد . والمقال ثمين طلي يستلذه هواة النباتات ولا سيما هواة ما كان منها عظيم الفائدة كالذرة الاميركية . هذا من حيث الموضوع أما من حيث نسبة البحث الى الاستاذ ايست بجامعة هارفرد فليعذرني صديقي محرر المقتطف اذا ذكرت له انني لم أجد في مقاله كله فكرة واحدة لم ترد في كتاب « المنابت الاصلية للنباتات الزراعية » تأليف دوكندول A. de Candolle العالم النباتي السويسري المشهور الذي يعد واضع تاريخ النباتات الزراعية بلا مراء . وقد ألف كتابه المذكور في أواخر القرن التاسع عشر فترجم الى معظم اللغات الحية . وفي خزانة كتبي نسخة بالفرنسية من طبعته الخامسة طبعت سنة ١٩١٢ . وأظن ان الاستاذ ايست نقل عنه بحثه أو زبدة بحثه [1]

ولما كانت معرفة المهد الأصلي للنباتات الزراعية تفيد الزارع والنباتي والفيلسوف والمؤرخ وكل من يتحرى أصل المدنية وفجر الانسانية ، رأيت ان ألخص بهذه العجالة رأي دوكندول في الوسائل التي تتبع لمعرفة المواطن الاصلية للنباتات الزراعية ولا سيما المهم من تلك النباتات كالحنطة والشعير وانواع الذرة والتبغ والبطاطس وامثالها من المزروعات المفيدة

﴿ طرائق البحث ﴾ اذا أراد العالم معرفة منشأ النبات الزراعي وتاريخه عمد الى طرائق أربع يبلغ باتباعها غايته وهي : اولاً تحري البلاد التي ينبت فيها ذلك النبات الزراعي طبيعيًّا أي ربَّما دون ان يكون للانسان يد في زراعته . فوجود نوع زراعي نابت نباتاً طبيعيًّا في أرض ما دليلٌ قوي على ان تلك الأرض هي مهده الأصلي . مثاله اننا اذا عثرنا على حنطة برية تنبتها الطبيعة في الشام والعراق رجحنا كون هذين القطرين هما مهد الحنطة الاصلي او أنهما في جملة البلاد التي تعد مهدها الاصلي وهكذا . لكن اتباع هذه الطريقة لا يخلو من صعوبة فقد تنقل الطيور أو الرياح مثلاً بزور نبات زراعي الى ارض بعيدة فتنبت فيها برية فيظن النباتي الذي يعثر على تلك النبتات أنها هنالك نابتة نباتاً طبيعيًّا منذ القديم فيخطىء ويضلّ سعيه

(١) المقتطف : اذا كان الغرض من البحث ذكر بسائط الموضوع — وهو ما نرجح — فلا ينتظر من الاستاذ ايست أن يأتي بشيء جديد . والغالب انهُ ذكر اسم دوكندول عند الكلام على طرائق البحث فلم نشر نحن اليه في التلخيص . اما الجانب الأكبر من بحث الاستاذ ايست فقد كان مصبوباً على الذرة الصفراء وهو ما أوجز ما أكثيراً في تلخيصه

وقد تختلط البزور بمضاعة المراكب التي تمخر البحار الى بلاد بعيدة فتنبت وتتكاثر في تلك البلاد فيذهب الباحث الى ان ذلك النبات قديم فيها وهو ليس بقديم . فيتضح من هذا ان على النباتي ان يكون فطناً حاذقاً قادراً على تفريق النبات الوطني عن النبات الجالب ، ولا شك انهُ لا يتطلب منهُ في هذا الباب معرفة البلاد الأصلية للنبات الزراعي قبل ان بدأ الانسان يزرعه في فجر الانسانية، فذلك يذهب بهِ بعيداً الى ما قبل التاريخ في الحقب الجيولوجية الخالية. وهنالك قواعد عامة لتطور الانواع في الاحياء لا يهمنا ذكرها

أما المهم فمعرفة مهد النبات منذ ما أخذ الانسان يزرعه . وفي هذا الصدد قواعد عامة يجب على النباتي والعشاب معرفتها ، كأن يكون النوع النباتي كثيراً شائعاً في قطر من الاقطار وقليلاً متفرقاً في قطر آخر بعيد جدًّا عن الاول ، ففي هذه الحال يرجح ان المهد الاصلي لذلك النوع هو القطر الاول . وكذلك اذا كانت الانواع النباتية التي هي من جنس واحد متأصلة في قطر ما فان وجود أحد تلك الانواع متفرقاً في قطر آخر بعيد يدلّ على ان هذا النوع قد يكون مجلوباً الى هذا القطر البعيد لا أصليًّا فيهِ . وتفيد الجغرافية النباتية كثيراً في هذا الموضوع ولا بدّ لمن يتحرى تاريخ النباتات من ان يراجعها . وعلى كل يظهر ان العدس والحمص زالا بتاتاً في الطبيعة أي كفّت الطبيعة عن إنباتهما بريين . أما الحنطة والفول والقرطم وغيرها فقد قلّ إنباتها طبيعيًّا وصارت نباتاتها البرية على وشك الانقراض

والطريقة الثانية لمعرفة المهد الاصلي للنبات الزراعي تحريه او تحري صوره أو متحجراته في المصانع والهياكل والاضرحة القديمة او في الطبقات الجيولوجية ، وذلك كالثمار والحبوب وغيرها من اعضاء النباتات التي وجدت في المقابر المصرية القديمة ، وكصورها في جدران الاهرام وقبورها . ولا بدّ هنا ايضاً من الاحتراز لئلا تكون هذه الحبوب او الثمار وضعت حديثاً في أضرحة المحنطات القديمة كالقردة الاميركية مثلاً فان وجود حبوبها في تلك المقابر لا يدل على انها قديمة . ولا شك ان من وضعوها هنالك (وربما كانوا افراد قبائل بدوية) يعيشون في القرون الأخيرة لا في ايام الفراعنة . وقد وجدوا في المساكن المائية القديمة في انحاء اوربا بقايا نباتات كانت تزرع في تلك العصور السحيقة، واستدلوا بوجودها فيها على منابت تلك النباتات . أما الطبقات الجيولوجية فعهدها أقدم بكثير من عهد الزراعة ، ولم يعثروا فيها على متحجرات نبات من النباتات الزراعية التي تزرع في أيامنا هذه لكنهم عثروا على متحجرات نباتات غير زراعية كما هو معروف

والطريقة الثالثة مراجعة كتب التاريخ لمعرفة استعمال الاقوام القديمة لاحد النباتات الزراعية او لمعرفة انتقال ذلك النبات مع الفاتحين والمهاجرين في الموجات البشرية المختلفة . وهنا ايضاً ربما أخطأ المؤرخون في ذكر المهد الأصلي للنبات الزراعي . فالروم واليونان مثلاً كانوا يسمون الدرّاق (الخوخ في مصر) تفاح ايران لانهم رأوه يزرع في بلاد فارس على حين أن مهده الأصلي

في الصين . ونحن في الشام نسمي الذرة الاميركية ذرة صفراء . والمصريون يسمونها ذرة شامية ، والعراقيون ذرة مصرية والتينيون ذرة رومية (انظر مقال العلامة أمين باشا المعلوف في عدد ينار ١٩٣٥ من المقتطف) . فيتضح من هذا الاختلاف في التسمية ومن هذه البلبلة أن النبات المذكور جديد ما كان يعرفه أجدادنا العرب الاقدمون ولم يضعوا له اسماً . والحقيقة ان مهده في أميركا كما اتفق عليه علماء النبات . والادلة على ذلك كثيرة ساطعة

ومن المعروف ان اقدم البلاد بحضارتها وباستعمالها للنباتات الزراعية الصين وغربي آسيا ومصر ثم الاقاليم الاستوائية في أميركا . فالصين ازدهرت فيها الزراعة من ألوف من السنين . وتدل بعض الوثائق التاريخية الصينية على ان بعثة المسمى شنغ كيان Chang-Kien نقلت من آسيا الغربية الى الصين في القرن الثاني قبل الميلاد الفول والقصفصة (برسيم حجازي) والخيار والسمسم والاسپاناخ والبسلة والجوز والقرطم وغيرها من النباتات التي كانت مجهولة في الصين . وعمل هذا السفير الصيني لا يستغرب فقد ذكروا ان أحد ملوك الصين كان احتفل بزراعة بعض النباتات احتفالاً عظيماً قبل عهد المسيح بألفين وسبعمائة سنة . أما الدراق (الخوخ في مصر) والمشمش فمهدهما الأصلي في الصين ومنها نقلا الى غربي آسيا

هذا في الصين أما البلاد الواقعة غربي آسيا فقد حدث فيها موجات بشرية كثيرة بين الشعوب الطورانية والآرية والسامية . فتاريخ هذه الاقوام في بابل وآشور ثم أسفار الفينيقيين وحروب الفرس واليونان وغزوات الاسكندر الكبير واستعمار الرومانيين وانتشار الاسلام والحروب الصليبية كل ذلك جمع لمراجعة التاريخ قيمة لا تنكر في تحري انتقال النباتات الزراعية وانتشارها في غربي آسيا وفي اوربا وشمالي افريقية

ولما كشفت اميركا سنة ١٤٩٢ نقلت منها نباتاتها الزراعية الى أنحاء العالم كالبطاطس والذرة الصفراء والتبغ والصبار وغيرها كما نقل الى اميركا عدد كبير من زروع العالم القديم . ثم لما كشفت جزائر البحر المحيط الهادي في القرن الثامن عشر من الميلاد وسهلت سبل المواصلات انتشرت النباتات القابلة للزراعة في جميع اقاليم الارض الزراعية

والطريقة الرابعة التي يرجع اليها النباتي تحري اسم النبات ووصفه في اللغات القديمة ، فيستدل بذلك على كون ذلك النبات معروفاً ومستعملاً عند الشعوب التي كانت تتكلم بتلك اللغات . وهذه الطريقة كالتي سبقتها لا تخلو من صعوبة ، لأن اسماء بعض النباتات قد تتبدل لدى الشعب الواحد في اللغة الواحدة ، ولأن وصف النبات ما كان شيئاً علمياً لدى كثير من الشعوب القديمة ولذلك ليس من الهين تعيين نوع النبات الذي كان يُسمى بكذا او كذا من الأسماء . هذا عدا ان اسماء بعض النباتات قد تكون واحدة لدى شعوب مختلفة فيكون من المتعذر معرفة الشعب الذي اقتبس تسمية النبات من الثاني . ومهما يكن فالعالم النباتي لا يعوّل في هذا الصدد إلاّ على الاسماء

الواردة في كتب النبات القديمة ككتب دسقوريدس وتيوفرسطس في اليونانية وكاترن وبلينيوس في اللاتينية وابن البيطار وابن سينا في العربية . فهؤلاء وبعض الصينيين الأقدمين وصفوا الانواع النباتية وصفاً لا بأس به يتمكن به العالم النباتي من معرفة تلك الانواع والاستدلال على انهم كانوا يزرعونها في تلك الايام . وتأتي في الدرجة الثانية لغات قديمة ليس في كتبها علم ولكن فيها شعراً وأدباً واموراً دينية وردت في تضاعيفها اسماء بعض النباتات وصفاتها كالسنسكريتية والعبرانية والآرامية . وفي مصاف الدرجة الثالثة لغات لا آداب فيها ولا علوم كالطورانية والآرية القديمة والعقلية القديمة واضرابها . فهذه اللغات لا يعتد بألفاظها الا باحتراز وعلى وجه التقريب . ويجب الاحتراز من اسماء النبات العامية فهي كثيراً ما تكون مغلوطة كتسمية الذرة الاميركية باسماء مختلفة في انحاء البلاد العربية وهو ما سبقت الاشارة اليه . وكتسمية النبات نفسه في الفرنسية Blé de Turquie اي حنطة تركيا على حين ان الذرة المذكورة ليست حنطة وان مهدها في اميركا لا في تركيا . ومن هذا القبيل شيء كثير في جميع اللغات الاوربية

***

﴿ الخلاصة ﴾ ليست طرائق البحث الاربع التي مرَّ ذكرها على درجة واحدة . فأهمها واعظمها شأناً الدلائل الاثرية اي العثور على النبات او على صوره او نقوشه في المصانع والهياكل الاثرية والقبور القديمة . فهذا دليل لا غبار عليه يدل على ان النبات المذكور كان يزرع في ايام الذين حفظوه او صوروه او نقشوه . ويليه الدليل النباتي اي العثور على افراد برية من النبات الزراعي . فهو دليل له شأنه . اما ورود ذكر للنبات في الكتب القديمة فدليل يأتي في الدرجة الثالثة . واما الاسماء العامية للنبات فدليل ضعيف الشأن لا يعول عليه الا نادراً . ولا شك أن كل دليل من هذه الادلة ناقص وحده . اما اذا اجتمعت الادلة وتضافرت اقترب بها العالم النباتي من حقيقة مهد النبات الاصلي او بلغ تلك الحقيقة . وتاريخ النباتات الزراعية هو بعد كتاريخ الشعوب فتواريخ الشعوب الثقة لا يدوّن فكرته ما لم يراجع ما كتبهُ الاقدمون في تواريخهم وما هو محفوظ في السجلات القديمة او مرقوم في الاحجار الاثرية او مدوّن في الجرائد والمجلات والمذكرات والكتب الخاصة . وبعد ان يزن كل ما يجده في هذه المراجع بحكم بما يراه صحيحاً . هكذا يفعل العالم النباتي الذي يتحرى مهد النباتات الزراعية فانهُ يرجع الى كل الطرائق التي تكلمنا عليها . وبهذه الطرائق تمكن دوكندول من كشف الغطاء عن مهد النباتات على وجه الضبط في بعضها وعلى وجه الترجيح في بعض آخر . وقد سهّل عمله توافر الادلة الاثرية والنباتية واللغوية مما خلفهُ العلماء منذ اواخر القرن الثامن عشر الى اليوم الذي ألف فيه كتابه الخالد

***

﴿ مواطن بعض النباتات الزراعية ﴾ اذا اردنا سرد الادلة التي تثبت موطن كل نبات من هذه

النباتات والتي ترينا تاريخ زراعته لدى الشعوب القديمة والحديثة وجب تأليف كتاب برأسه . لذلك نقتصر على ذكر بعض النتائج التي حصل عليها دوكندول ودوَّنها في كتابه المذكور . واهم النباتات الزراعية الحنطة فهي تزرع منذ فجر الانسانية وقد وجدت حباتها في اهرام مصر وفي مخبرات سويسرا . وورد ذكرها في كتب الصينيين والعبرانيين وطعامٌ في كل اللغات القديمة والحديثة وموطنها الاصلي في العراق وفي الشام الجنوبية لانهُ عثر على نباتها البري قديماً في العراق وحديثاً في الشام

والشعير قديم ايضاً . وقد وجد الشعير ذو الحرفين بريًّا في آسيا الغربية ومنها جزيرة العرب وسيناء . اما الذرة اي الذرة البيضاء في الشام والبلدية في مصر فالارجح كونها بلادها الاصلية مصر العليا وجزيرة العرب واما الذرة الصفراء في الشام والذرة الشامية في مصر فهي اميركية الاصل كما قلت وهي لم ترد في مفردات ابن البيطار وما كان اجدادنا يعرفونها . والرز او الارز من اقدم النباتات الزراعية . فقد كان مبذولاً في الصين منذ نحو ٢٨٠٠ سنة قبل الميلاد . ومهده الاصلي في الهند على الارجح . والعرب هم الذين نقلوه الى الاندلس . ومهد القطن العشبي في الهند . وربما كان موطن القطن الشجري في مصر العليا . والى العرب يرجع فضل اذاعة القطن وزراعته في الغرب . والاطريفل السكندري اي البرسيم مهده الاصلي في الشام والاناضول . والشام ايضاً موطن الفستق والخرُّوب والتين والزيتون . ومهد الكرمة آسيا الغربية وشواطىء بحر الروم وكذا السماق . والشاي من الصين ومنشوريا ، والقهوة من افريقية الاستوائية ، والتوت الابيض من الهند وبلاد المغول اما التوت الاسود اي الشامي فمن ارمينيا وايران . والنخل الذي عُرف بنا وعرفنا بهِ تمتد بلاده الاصلية من جزيرة العرب والعراق الى المغرب الاقصى وجزائر كناريا . ولاشك انهُ كان موجوداً في شمالي افريقية قبل عهد العرب والاسلام بضعة الوف من السنين . ولم يعرف اين كان مهده الاصلي على الضبط قبل عهد الفراعنة اي هل كانت كل هذه البلاد موطناً له ام كان ينبت نباتاً طبيعيًّا ويزرع في قسم منها لا فيها كلها . ولعلَّ العثور على متحجراته يكشف الغطاء عن ذلك في يوم من الايام

والهند موطن الكبَّاد (أترج في مصر) والنارنج والأُتْرُج (منجا) والقرفة والفلفل والخيار كما ان الصين موطن البرتقال والمندرين والدرّاق (خوخ في مصر) والمشمش . اما النباتات الزراعية التي منابتها الاصلية في اميركا فكثيرة منها الكينا والذرة الاميركية والأناناس والفليفلة والبَنَدُورة (طماطم في مصر) والبطاطس والصبَّار والجوافة والقشطة والتبغ الخ . وقد كنت بينت بأدلة ساطعة ان التبغ غير الطُّبَّاق (انظر عدد ابريل ١٩٣٠ ص ٤٥٥ من المقتطف) . وأقول إن الصَّبَّار اي التين الشوكي ما كان معروفاً قبل كشف اميركا . فلفظة الصُّبَّار (بالضم) إذن التي وردت في المعاجم العربية وفي مفردات ابن البيطار لا تدل على هذا النبات بل تدل على التمر الهندي فينبغي لعلمائنا ان ينتبهوا الى ذلك